تفعيل وسيلتي السَّمْع والبصر في إدراك الخطاب القرآني

د. رقية طه جابر العلواني ★

ملخص البحث :

تتناول هذه الدّراسة البحث في أهم وسائل فهم الخطاب القرآني المتمثلة في السمع والبصر، وكيفية تفعيلهما لإيصال معاني الخطاب وتوجيهاته، إذ إنَّ فهم الخطاب القرآني من أهم وأوْلَى خطوات التطبيق والتنزيل له في واقع الحياة الإنسانية. ومن هنا كانت المنزلة التي تبوأها الفهم والتدبُّر لمعاني الخطاب القرآني، منزلة لا تدانيها في الأهمية منزلة. فالخلل الطارئ في وصول تلك المعاني يؤدي إلى سوء تطبيق وتفعيل لها قد ينجم عنه في كثير من الأحيان تعطيل تلك المعاني والتوجيهات وإيقاف عملها في حياة الأفراد والمجتمعات.

ولقد أسهم الفهم السليم لمعاني الخطاب القرآني على مدى قرون متعاقبة في إخراج أمة خيرة قادت الأمم قروناً، فكان الشهود الحضاري للأُمَّة خير شاهد على إيجابية إدراكها لرسالة الخطاب القرآني وتوجيهاته.

بيد أنَّ ذلك الإدراك لم يكتب له التواصل والاستمرارية لعوامل تاريخية

(★) أستاذ مساعد بكلية الآداب قسم اللُّغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة البحرين.

وثقافية وسياسية متضافرة، تداخل فيما بينها لتؤدي إلى بُعد العقلية المسلمة عن ذلك النهج، الأمر الذي قاد إلى ضمور وسائل الإدراك وضعف فعاليتها، بل ربما تعطلها في بعض الأحيان.

من هنا تأتي هذه الدّراسة في محاولة جادة تطبيقية لتفعيل أهم الوسائل وإعادة إعمالها بما يتلاءم والدور المنوط بها، من خلال الكشف عن أهم العوائق والعوامل التي يمكن أنْ تحول بين سمع الإنسان وبصره وإدراك المعاني الموجهة إليهما، وكيفية تفعيلهما تنحياً عن الوقوع في مزيد من التراجعات عن العمل الفعَّال.

وتنتهج الدّراسة الرجوع إلى النصوص القرآنية المطلقة في استنباط عوامل إعاقة وسيلتيْ السمع والبصر وكيفية تفعليهما، فقد اعتنت نصوص القرآن الكريم عناية واضحة بالسمع والبصر وأكدت على أهميتهما في فهم الخطاب القرآني، متوقفة عند عوامل الخلل والإعاقة، مؤكِّدة على أهمية إصلاحها وتنقيتها لتقوم بدورها في توصيل معاني وتوجيهات الخطاب إلى الذهن بشكل صحيح لا تعتوره مظاهر الخلل والانحراف. وتستعين الدّراسة كذلك ببعض الأحاديث النبوية التي تناولت الإشارة إلى تلك الوسائل ومواطن الخلل فيها، إضافة إلى أقوال السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ في هذا المجال.

وقد كشفت الدّراسة عن بعض وأهم العوارض التي يمكن أنْ تؤدي إلى إحداث خلل أو تعطيل لفعالية الوسائل في إيصال المعاني، الأمر الذي ينجم

عنه خلل كبير في الفهم والإدراك والاستقبال لها. كما وقفت الدّراسة على أهم وأنجع الطرق لتنقية تلك الوسائل وتفعليها.

والدّراسة إذ تقوم بتبني هذا المشروع المنهجي تؤكِّد على أهمية الحاجة إلى مزيد من الدّراسات والأبحاث في هذا الميدان لترشيد السير وتسديد الخطو.

المُقَدِّمَة:

القرآن الكريم خطاب الله عزَّ وجلَّ إلى خلقه عبر العصور المختلفة والأزمنة المتعددة. حوى بين دفتيه منهجاً متكاملاً للحياة، بكل ما تحمله من مواجهات وتحديات، ذلك المنهج الذي تكفل الله سبحانه بحفظه من أي تحريف أو تحوير لنصوصه، لتبقى للخطاب القرآني عالميته وخاتميته لكل الرسالات السابقة، بيد أنَّ فهم الخطاب لا يتوقف على ثبوتية النص وصحته ـ التي تكفل بها الخالق سبحانه ـ فحسب، بل يمتد ليشمل إمكانية العقل المسلم لفقه هذا الخطاب وتنزيله على الواقع البشري، وتفعيله سلوكاً عملياً في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء.

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أنَّ أول وأهم خطوة في تطبيق توجيهات الخطاب القرآني تنصرف إلى الفهم الصحيح، ذلك الفهم الذي يؤدي حتماً إلى تبني التوجيه تصديقاً وتطبيقاً واقعياً في السلوك الإنساني.

وعلى هذا تُعَدُّ مرحلة الفهم هي المرحلة الأساس في وصول الخطاب القرآني للذهنية الإنسانية. فالخلل الذي يطرأ فيها يفضي إلى خلل عميق في كيفية تنزيل وتطبيق ذلك التوجيه في واقع الحياة في خطوات لاحقة.

بيد أنَّ ذلك الفهم والتدبُّر في الخطاب القرآني، يحتاج إلى وسائل وأدوات يمكن من خلالها التوصل إلى مرحلة الإدراك السليم، وبقدر صحة تلك الوسائل وفعاليتها، يكون الإدراك أقرب إلى الصحة والصواب وأكثر فعالية وواقعية، كما أنَّ وصول الخطاب إلى الذهن لا يتأتى إلاَّ من خلال المرور بمراحل الإدراك المختلفة لتصل الصورة مكتملة، حاملة مفردات الخطاب وتوجيهاته.

والقرآن الكريم أشار إلى تلك الوسائل وأهمية دورها في إيصال المعاني المراد إيضاحها في الخطاب، فأكَّد على أهمية السمع والبصر والقلب والعقل كأدوات يدرك بها الخطاب القرآني، فهي أهم منافذ الإدراك الإنساني وأقوى بواباته على العالم المنظور والمقروء. فإذا ما تم توظيف وتجهيز تلك الوسائل عند عملية الاستقبال بفعالية ومنهجية سليمة، آتت ثمارها في فهم وتطبيق واعٍ لتوجيهات ذلك الخطاب.

وقد ظهرت تلك الثمار جلية في حياة المسلمين وإنجازاتهم على مدى قرون متعاقبة في شتى ميادين الحياة، فقدموا للعالم،فيما قدموا حضارة إنسانية عجزت الأمم عن بلوغ ما يماثلها أو يضاهيها.

بيد أنَّ تلك الأجهزة والوسائل تعرضت للإصابة بأمراض مختلفة على مرّ العصور، أدت إلى التقليل من فعاليتها وقدرتها على استقبال المعاني وإيصالها بطريقة واعية سليمة، الأمر الذي ظهر في حدوث خلل في الاستقبال والتوصيل في مرحلة تالية لتلك المعاني والتوجيهات. وتجلى ذلك الخلل وآثاره في واقع

المسلمين وتنحيهم عن الريادة الحضارية للأمم، وتفشي أمراض عديدة في المجتمعات المسلمة ما كان لها أنْ تظهر لولا ذلك الخلل الجلي. ولا عجب فالفهم المختل للخطاب القرآني مدعاة للوقوع في الخطأ تنظيراً وتطبيقاً.

من هنا تأتي أهمية هذه الدّراسة في الوقوف على أهم تلك الوسائل **(السَّمع والبصر)**، ومحاولة الإحاطة بكيفية عملها وتجهيزها وعوامل فعاليتها، ومن ثم التعرُّض لبعض الأعراض المعوقة لتفعيلها وكيفية تجاوزها في محاولة لإعادة تفعيلها وإصلاحها لاستقبال الخطاب القرآني.

وثمة أهمية أخرى لهذه الدّراسة، تتأتى من كونها دراسة عملية تم تطبيقها بالفعل من خلال دورات علمية أقيمت في بيت القرآن في المنامة خلال العام الحالي. وقد تجاوز عدد المشاركات فيها على المائة مشارِكة، تم من خلالها تمرين تلك الفئة وتدريبها على كيفية استعمال مختلف القدرات العقلية وتنميتها لتفعيل وسائل الإدراك وتطبيقها في تدبر القرآن الكريم، ولا يزال العمل جارياً من خلال إقامة المزيد من ورش العمل التدريبية لتفعيل مفهوم التدبُّر وإعادته إلى واقع الحياة.

وتتوسل الدّراسة في سبيل الوصول إلى ذلك بمنهج الرجوع إلى النصوص القرآنية مباشرة، ومن ثم استنباط الوسائل والعوائق وكيفية علاجها كما تناولته النصوص، مع الاستعانة ببعض الأحاديث وأقوال السلف ونهجهم في ذلك.

أولاً: الإدراك ووسائله

الإدراك لغة: بلوغ أقصى غاية الشيء وإحاطة الشيء بكماله.

وفي "التعريفات": "إحاطة الشيء بكماله، وهو حصول الصورة ثم النفس الناطقة وتمثيل حقيقة الشيء وحده والحكم عليه بنفي أو إثبات، ويسمَّى تصوراً، ومع الحكم بأحدهما يسمَّى تصديقاً"[1].

فالإدراك بلا حكم تصور، والإدراك بحكم تصديق، وجازمه الذي لا يقبل التغيير[2].

ويعرِّف علماء النفس الإدراك (Perception) ــ الذي احتل مساحة كبيرة من دراساتهم ـ بأنَّه: "المعرفة المباشرة للعالم ولأجسامنا نتيجة إشارات عصبية يتلقاها الدماغ من أعضاء الحس المختلفة"[3].

فعملية الإدراك عملية عقلية وانفعالية معقدة، يدخل فيها الشعور والتخيُّل والتذكُّر، وتتأثر بقدرات الفرد ودوافعه واتجاهاته وخبراته.

والمعاني التي تصل إلى النفس لها أسباب وآلات يتم بها الإدراك. والمعاني

(١) انظر: الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ ٢٩/١.

(٢) المناوي، محمد عبد الرؤوف: التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ ٤٥/١.

(٣) عبد الخالق، أحمد محمدو عبد الفتاح دويدار: علم النفس أصوله ومبادئه، مصر، ١٩٩٣م، ص ١٣٣.

المدركة عند العلماء محسوسة ومتخيلة ومعقولة. والإنسان عند ولادته يكون خالياً من العلوم الكلية والجزئية التي يمكن إدراكها عن طريق قوى ووسائل الإدراك المحسوسة والمتخيلة والمعقولة، فلا يولد مع الإنسان شيء من العلوم[1].

والأصل في هذا قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2].

ثم إنَّ المعاني والعلوم التي يستفيدها الإنسان تتراكم وتتجمع مع بعضها البعض، وفي الآية الكريمة إشارة إلى وسائل المعرفة والإدراك، وهي: السمع والبصر ـ وهو الحس ـ والفؤاد، ويشمل العقل بالمعنى الأخص.

فالحاسة هي القوة الحساسة التي يدرك بها ما وضعت هي له، فالسَّمع يدرك به الأصوات، والبصر يدرك به الأضواء والألوان وغيرها، وهذه وسائل الإدراك. والحواس المختلفة تنمو وتتكامل في الصغير حتى يصل إلى سن معينة، ثم إنَّه يمكن تنميتها بالاكتساب.

---

(١) انظر في تفاصيل كلام الأصوليين عن القوى الإدراكية: الغزالي، أبو حامد: المستصفى في علم الأصول، تحقيق محمد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ ٢٧/١. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد: روضة الناظر، تحقيق عبد العزيز السعيد، جامعة الإمام ابن سعود، الرياض، ط/٢، ١٣٩٩هـ ١٧/١.

(٢) سورة النحل الآية ٧٨

وقد آتى الله سبحانه الإنسان قوة إدراكية تتمثل بحواسه وتتمثل بفكره وقلبه، فالحواس تشعر، والفكر يدرك، والقلب يعقل. فالحواس الخمس مشتركة بين الإنسان وغيره من المخلوقات، بل إنَّ بعض الحيوانات قد زودت بقدرات تفوق الإنسان في بعض الحواس كالنحل الذي يتفوق في رؤيته على الإنسان من خلال حاسة الإبصار المتطورة لديه، التي تستطيع رؤية الأشعة فوق البنفسجية على سبيل المثال[1].

إلاَّ أنَّ الإنسان يفوق سائر المخلوقات في قوة الإدراك بصفة عامة نظراً لتطور ونضج جهازه العصبي وما حباه الله تعالى به وميَّزه من جهاز العقل الذي هو أداة الفكر الإرادية الصادرة عن النفس لاستحصال المجهولات بالمعلومات[2].

وعلى هذا كان هناك فارق كبير بين الإحساس والإدراك، كما أنَّ هناك ترابطاً وتكاملاً بينهما، فالإحساس (Sensation) قد يكون رؤية الضوء أو سماع الصوت من حيث كونه متعلقاً بالحواس، ولكن الإدراك يكون عن طريق الفكر الذي هو عمل القلب والعقل معاً في إدراك المحسوس الواصل عن طريق الحواس المختلفة وتحويله إلى معانٍ ودلائل. وهذه القدرات بمجموعها تشكل

(١) بركات، محمد خليفة ونبيلة عباس، عفاف دانيال: علم النفس العام، مكتبة الصفوة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠/٢٠٠١م، ص ١٣٧.

(٢) ابن عمر، محمد بن محمد: التقرير والتحبير، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ٦٥/١.

القوة الإدراكية لدى الإنسان التي تميَّز بها عن سائر المخلوقات.

فالصلة مباشرة بين الإحساس والإدراك، لأنَّ انعدام حاسة من الحواس يؤدي إلى انعدام موضوعاتها، فالإدراك يستمد مقوماته من الإحساسات التي ينقلها الجهاز العصبي إلى المخ حيث تتم عملية الإدراك(١).

وتوجد مراكز الإحساسات المختلفة التي تستقبل المؤثرات الحسية وحملها إلى المراكز الخاصة في المخ، وتسمَّى الخلايا الموردة، أمَّا الخلايا التي تحمل الأوامر إلى الأعضاء الجسمية بالاستجابات المعينة، فإنَّها تسمَّى بالأعصاب المصدرة(٢).

ولا يتم الإدراك إلاَّ من خلال استعمال آلات ووسائل الإدراك الإنساني، وتتوقف سلامة الإدراك الحسي والمعنوي للظواهر من حولنا ولمختلف أنواع الخطاب على مدى وصحة الأجهزة والآليات التي يستقبل بها الإنسان ذلك الخطاب ومدى فعاليتها للقيام بذلك الدور، فالاستقبال السليم مدعاة للفهم السليم.

كما ينجم عن وقوع الخلل فيها أو تعطيلها ـ سواء أكان ذلك الخلل فيزيولوجياً أو سيكولوجياً ـ انحراف جلي في فهم الخطاب، ومن ثم إمكانية تطبيقه في الواقع.

ولا ينحصر الخطاب الموجه للخلق من خالقهم سبحانه في آيات القرآن

(١) عبد الخالق، أحمد محمد: أسس علم النفس، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط/٣، ٢٠٠٠م، ص ٥٠ وما بعدها.

(٢) عيسوي، عبد الرحمن: دراسات في السلوك الإنساني، منشأة المعارف، مصر، بلا تاريخ، ص ١٥٥ وما بعدها.

المتلوة فحسب، بل يشمل آياته المشهودة في الكون والنفس كذلك. يقول ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك: "الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكُّر في آياته وتدبُّرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة"[1].

والناس وإنْ كانوا متفاوتين في إدراكهم لتلك الآيات، فالفلكي يرى في السماء ما لا يراه الإنسان العادي ـ على سبيل المثال ـ إلاَّ أنَّ ثمة أرضية مشتركة يدركها الجميع عند رؤيتهم لها، تتمثل في أنَّ خلق السماء خالٍ من كل نقص أو عيب يقدح في تمام صنعتها وعظمة صانعها، ثم إنَّهم يتفاوتون في إدراك جزئيات ذلك ودلالاته وفق ما يتوافر لدى كل منهم من علم، وثقافة، وميول، وذكاء، وخيال، وخبرات، وعقائد سابقة.

وآيات الله المتلوة خطاب أنزله الله سبحانه على رسوله عليه الصلاة والسلام ليبلغه للعالمين، والخطاب المرسل لا بُدَّ له من مستقبل ووسائل استقبال تدرك معانيه ومراميه، ليتمكن السامع من خلالها تلقي الخطاب ومن ثم تحويله إلى مفاهيم وتصورات لتنعكس بدورها في سلوكياته ومنهج حياته،

(١) الجوزية، ابن قيم: الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٢، ١٩٧٣م، ٢٠/١.

خاصة وأنَّ الله قد تكفل بحفظه وسخَّر له من الجهود في وسائل الحفظ ما لا يدع مجالاً لاستزادة مستزيد، ليكون بذلك الخطاب الخاتم المهيمن على كل ما سواه، ومن هنا كانت فعالية الخطاب القرآني وإيجابيتها حاضرة على مدى العصور والأزمنة ولدى مختلف الشرائح الإنسانية المستقبلة للخطاب.

ولا تتخلف فعاليته ولا تغيب تأثيراته إلاَّ بقدر تخلف أو تعطُّل الأجهزة والآليات التي يدرك بها العقل البشري أبجديات الخطاب ووسائله وتفعيلها في الواقع. من هنا كانت سلامة تلك الوسائل من أهم الطرق لفهم الخطاب وإعادة تفعيلها في حياة الفرد والمجتمع.

وقد تناولت نصوص القرآن الكريم أهمية هذه الوسائل ودورها في عدد من النصوص، منها:

[١] قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

[٢] وقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2].

(١) سورة الانعام الآية ٣٦

(٢) سورة يونس الآية ٦٧

[٣] وقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

[٤] وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾(٢).

[٥] وقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾(٣).

وقال عن البصر: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾(٤)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ

(١) سورة الروم الآية ٢٣

(٢) سورة الملك الآية ١٠

(٣) سورة النمل الآية ٨١

(٤) سورة الانعام الآية ١٠٤

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾[1].

وقد أشار عدد من العلماء ـ ومنهم ابن قيم الجوزية ـ إلى تلك الوسائل، موضحاً أهميتها في الاستقبال للخطاب القرآني من حيث أنَّ تأثُّر الإنسان بما يراه ويسمعه أعظم من تأثُّره بما يلمسه ويذوقه ويشمه. فتلك الحواس وإنْ كانت وسائل إدراك إلاَّ أنَّ هذه الثلاثة هي طرق العلم المعروفة[2].

وتشترك تلك الوسائل من ناحية أخرى في كونها جميعاً قد خلقت لغاية واحدة لا يتحقق كمالها إلاَّ بالوصول إليها، ألا وهي معرفة الخالق سبحانه والقيام بعبوديته على الوجه المطلوب.

يقول ابن القيم في ذلك: "خلق الله سبحانه ابن آدم وأعضاءه وجعل لكل عضو منها كمالاً إذا فقده أحس بالألم وجعل لملكها ـ وهو القلب ـ كمالاً إذا فقده حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان، فإذا فقدت العين ما خُلقت له من قوة الإبصار، وفقدت الأذن ما خُلقت له من قوة السمع، وفقد اللسان ما خُلق له من قوة الكلام؛ فقدت كمالها..."[3].

---

(١) سورة الحشر الآية ٢

(٢) الجوزية، ابن قيم: مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م، ط/٢، ٤٠٩/٢.

(٣) الجوزية، ابن قيم: الطب النبوي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ، ١٥٦/١.

فإذا ما استعملت تلك الوسائل بعيداً عن غاية خلقها وإيجادها، بدأت في التخبط والتيه وانصرفت إلى غير ذلك وعاشت تعاني أشكالاً وأنماطاً من الأمراض النفسية الهائلة التي قد لا يشعر المرء بها رغم ظهور أعراضها وتداعياتها على حياته وغيره.

والمتأمِّل في واقع الأُمَّة المتلقية للخطاب القرآني اليوم؛ يدرك عظم المحنة التي تمر بها مع كتاب الله تعالى، فالتلاوة لم تعد ـ في غالب الأحيان ـ لغرض الفهم والتطبيق وتحويل النصوص إلى واقع سلوكي، بل باتت ـ في أفضل الأحوال ـ للتبرك والاستشفاء وطلب الأجر والثواب فقط، وما تلك إلاَّ أمور يسيرة في جانب المهمة العظيمة التي لأجلها تكفل الخالق سبحانه بحفظ هذا الخطاب دون سائر الكتب السماوية الأخرى، وجعله باقياً وخاتماً ومهيمناً عليها جميعاً.

ثانياً: وسيلة السمع الإدراكية

والسمع في اللُّغة: حس الأذن، وقد يطلق ويراد به القبول والعمل بما يسمع[1].

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط/١، ١٦٢/٨. وانظر: الفيرةآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، بدون تاريخ، ٩٤٣/١، الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٥م، ١٣٢/١.

وفي "المصباح": "سمعت كلامه، أي فهمت معنى لفظه، فإنْ لم تفهمه لبُعد أو لغط فهو سماع صوت لا سماع كلام، فإنَّ الكلام ما دلَّ على معنى تتم به الفائدة وهو لم يسمع ذلك"[1].

وقد ذكر السمع بمشتقاته في القرآن الكريم في (١٨٥) موضعاً، وجميع المواضع التي ورد فيها ذكر السمع وحاسته الأذن؛ كانت للدلالة على الوظيفة التي يقوم بها هذا الجهاز، وهي السماع واستقبال الحديث الموجه للسامع.

والسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي ينبني عليه، وهو رائده وجليسه[2].

فالإنسان يستقبل عن طريق السمع المعلومات ويقوم بنقلها إلى الدماغ ليحولها إلى حس مدرك، من هنا كان السمع أهم النوافذ المعرفية التي يستقبل الإنسان من خلالها المعلومات الخارجية.

وقد ذكر السمع متقدماً على الحواس كلها في أغلب المواضع في القرآن الكريم، وهذا التقديم له دلالته العلمية التي لم تكن معروفة وقت نزول القرآن، فقد كشف علماء الفسيولوجيا والتشريح أنَّ جهاز السمع أرقى وأعقد وأدق وأرهف من جهاز الإبصار، ويمتاز عليه بإدراك المجردات وإدراك التداخل، مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها البعض مع القدرة على تمييز كل نغمة

(١) المقري الفيومي، أحمد بن محمد: المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ٢٨٩/١.

(٢) الجوزية، ابن قيم: مدارج السالكين، مرجع سابق، ٤٨٢/١.

على انفراد في لحظة من الزمن.

في حين أنَّ العين تتوه في زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها، والعلم يمدنا بألف دليل على تفوق معجزة السمع على معجزة البصر[1].

يقول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[3].

وللسمع في القرآن الكريم معانٍ متعددة ومراحل مختلفة يمر بها، فتارة بدل على إدراك الشيء بالأذن فقط، وهذا أمر مشترك بين الإنسان وغيره من المخلوقات، وهي أولى المراحل في عملية السمع، كما في قوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[4].

(١) الجوزية، ابن قيم: بدائع الفوائد، تحقيق هشام عطا وعادل عبد الحميد وأشرف أحمد، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ٧٧/١.

(٢) سورة النحل الآية ٧٨

(٣) سورة الاسراء الآية ٣٦

(٤) سورة البقرة الآية ٧

إلاَّ أنَّ حاسة السمع وغيرها من الحواس ما هي إلاَّ وسائل متنوعة لحقيقة واحدة هي (الإدراك)، وتحويل المسموعات إلى معانٍ ومفهومات ومدركات.

ولكي تتم هذه العملية فلا بُدَّ من مرورها بمراحل عدة، فالإدراك هو العملية العقلية التي تتبع الإحساس، فعندما تنتقل التموجات الحسية من حاسة السمع أو غيرها من الحواس إلى المراكز العصبية في المخ وتختلط بالمكونات العقلية، تحدث عملية تمييز المحسوسات وإعطاؤها معنى خاصاً، وبذلك تتم عملية الإدراك، ويحدث الإدراك عادة نتيجة لتعاون أكثر من حاسة واحدة في آن واحد[1].

فحاسة السمع تشترك مع القلب والعقل في إدراك معاني الألفاظ المسموعة والمنقولة إليها، وإذ لم تشترك وتوقف السمع عند التقاط الأذن فحسب، نفي عن الإنسان السمع مع امتلاكه القدرة على التقاط الأصوات والألفاظ عبر الأذن، لأنَّ المعول عليه سماع الفهم لا سماع الالتقاط والإدراك الذي يشترك الإنسان فيه مع سائر المخلوقات.

وقد أشار القرآن إلى مختلف المراحل التي تمر بها المسموعات منذ لحظة وصولها إلى الأذن وإلى لحظة انتقالها إلى الدماغ لتحويلها إلى مدركات ومفاهيم، وعلى هذا كان السمع أنواع وفق المرحلة التي يمر فيها.

ومن هنا تكون النصوص القرآنية التي تحدثت عن السمع وما يتبعه من

(١) بركات "وآخرون"، مرجع سابق، ص ١٣٧.

نتائج في غاية الدقة والتخصيص، فعملية الإدراك للخطاب المسموع لا تتم إلاَّ بعد تركيز الانتباه المؤدي إلى حصر الطاقة العقلية في الموضوع المسموع، إضافة إلى أنَّ طبيعة الإدراك وسرعته تتوقف على قدرة وإرادة الشخص المتلقي للخطاب(١).

وعليه يمكننا القول بأنَّ حقيقة السمع وهي تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها طلباً أو هرباً وحباً أو بغضاً(٢).

وقد تعرَّض ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ إلى هذه الجزئية من خلال تتبعه لنصوص القرآن الكريم، وقام بتقسيم السمع إلى أنواع وفق المرحلة التي تمر بها عملية السماع، فذهب إلى أنَّ سماع الفهم بمعنى أنْ تتحول المسموعات إلى مدركات تفهم بالعقل؛ جاء في القرآن منفياً عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾(٣)، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾(٤)، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِى

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٩.

(٢) ابن قيم: مدارج السالكين، مرجع سابق، ٥١٧/١.

(٣) سورة النمل الآية ٨٠

(٤) سورة الروم الآية ٥٠

ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ (١).

فالتخصيص هاهنا لإسماع الفهم والعقل وإدراك المسموعات والتفكُّر فيها بالعقل والقلب، وإلاَّ فالسمع العام بحاسة الأذن فقط، قد قامت به الحُجَّة ولا تخصيص فيه. فالكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى القلب والأذن وتعلُّق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فالله سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود من الآيات، ذلك السماع الذي هو حظ القلب، إلاَّ أنَّه أثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن، وهو المشترك بين سائر المخلوقات، بل إنَّ بعض الحيوانات تتفوق على الإنسان في قوة السمع من هذه الناحية.

وقد أكَّد علماء النفس على التكامل الحاصل بين الإدراك والإحساس، فالإدراك عملية ربط بين الإحساسات والمسموعات، وتعتمد على عمليات عقلية ومعرفية كالتذكُّر والتفكير، وبدونها لا يكتمل إدراك الإنسان لما يسمع ويتلقاه.

والقرآن الكريم أشار إلى هذا كله بتفصيل بالغ الدقة، فالسمع المطلوب هو الذي تتضافر فيه مختلف الأجهزة من الأذن والقلب والعقل، فإذا قلَّت فعالية واحد منها؛ تأثرت باقي الأجهزة بذلك ونجم عنها تعطيل فعالية السماع وآثارها.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٢

من هنا كان نفي القرآن الكريم السماع عمن قام بتعطيل قلبه وعقله في تفهُّم وإدراك المسموع، فما قيمة أنْ يمتلك المرء جهازاً له قدرة فائقة ثم لا يقوم باستعماله إلاَّ نذراً يسيراً منها؟

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1].

فالقرآن أسقط في الآيات عن كل من قام بتعطيل عمل العقل والقلب في تعقل المحسوسات ومنها المسموعات، صفة الإنسانية، لأنَّ الميزة التي تميِّز الإنسان عن الحيوان هي التعقُّل والقدرة الإرادية على تحويل تلك المحسوسات إلى مدركات، فلا قيمة للحواس إذا لم تتم الإفادة منها في المعرفة العقلية. من هنا كانت حاسة السمع متعلقة أشد التعلُّق بالقلب، فهي تحتاج إليه للوصول إلى الكمال ووصول العلوم إليه[2].

فالسمع ـ تلك الوسيلة الأكثر فعالية في استقبال الخطاب ـ تفقد فعاليتها وقدرتها على التقاط الألفاظ المرسلة إليها وقد تتحوَّل إلى الصمم، إذا لم يكن

(١) سورة الاعراف الآية ١٧٩

(٢) ابن قيم: مدارج السالكين، ٤٠٩/٢.

ثمة توصيل فعَّال بين جهاز السمع والقلب، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1]، فالختم على القلب مدعاة لانقطاع وصول معاني الألفاظ إليه، فلا تتم مرحلة الفهم رغم سماع الأذن للألفاظ[2].

من هنا جاء القرآن بوصفهم بالصمم، والمراد به الصمم المعنوي أو صمم القلب والعقل عن إدراك معاني الألفاظ المسموعة، وليس المراد به حتماً الصمم الحسي الناجم عن تعطُّل حاسة السمع (الأذن)، قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾[3].

وتتضافر النصوص القرآنية في التأكيد على تلك المعاني وتنبيه العقل على أهميتها وضرورة توظيفها للوصول إلى الفهم والإدراك والانتقال منها إلى مرحلة القبول والاستجابة والتطبيق العملي الذي يشكل الغاية الأساس من إنزال الخطاب القرآني الكريم.

وبهذا تتبادل مختلف أجهزة الاستقبال في الإنسان وحواسه التأثير سلباً أو

(١) سورة الاعراف الآية ١٠٠

(٢) الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ ١٧٠/٧.

(٣) سورة يونس الآية ٤٢

إيجاباً في تناسق تام مع بعضها البعض للوصول إلى الفهم والإدراك المطلوب.

وقد أكَّد القرآن الكريم على أهمية التلازم الإدراكي بين الحواس والعقل في توصيل الخطاب القرآني الذي يشكل الحياة الحقيقية، وذلك من خلال تشبيه المعطلين لها بالموتى، ونزع صفة الحياة الحقيقية عنهم في إشارة جلية إلى أنَّ أعضاء الحس والإدراك في الإنسان إنَّما خُلقت لتحقيق غاية العبادة والاستجابة لأوامر الخالق سبحانه، وأنَّ الإنسان لا يكتسب صفة الحياة الحقة إلاَّ بإعمالها وتفعيل دورها في تصويب سلوكه وتصحيح مساره.

وهكذا جعلت النصوص القرآنية الفارق بين الحياة والموات، التناسق المتبادل في العمل بين العقل والحواس، كما في قوله تعالى ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

يقول ابن القيم في هذا السياق: "السمع ثابت لهم، وبه قامت الحُجَّة عليهم، ومنتفٍ عنهم ـ وهو سمع القلب ـ فإنَّهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك كالغنم التي لا تسمع إلاَّ نعيق الراعي بها دعاءً ونداءً، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب، فلو سمعوه من هذه الجهة لحصلت لهم الحياة الطيبة التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب ولزال عنهم الصمم والبكم، فحصول السمع

(١) سورة الروم الآية ٥٢

الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإنَّ بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته، وحياته، وسروره، ونعيمه، وبهجته"[1].

ثالثاً : تفعيل وسيلة الإدراك السمعية

تبيَّن لنا أنَّ سمع القبول والاستجابة وتفهُّم معاني المسموع بالقلب والعقل، هو غاية السماع ومقصده، وهي بدورها من أهم مراحل تدبُّر القرآن. وهذا السماع النافع لا يتحقق إلاَّ لمن يؤمن بآيات الله ويتدبرها ويفهمها ويعقلها ويعمل بما فيها[2].

بيد أنَّ تلك الغاية قد تعترضها بعض العقبات، فتحول دون تحقيق الغاية المرجوة، من هنا جاءت معالجة القرآن الكريم لتنقية الأجهزة المستقبلة على مستويين:

الأول: في التخلص من العوائق .

والآخر: في التأكيد على الخطوات اللازمة لتنشيط تلك الأجهزة.

وقد اعتنت نصوص القرآن الكريم بتحديد عدد من العقبات والعوامل

(١) ابن قيم: مدارج السالكين، ٤١١/٢.

(٢) الطبري: مرجع سابق، ٥٦/٢١.

التي يمكن أنْ تعيق الوصول بالإنسان إلى مرحلة الإجابة والقبول، تلك المرحلة التي أولاها القرآن الكريم أهمية بالغة وأكَّد على ضرورة التوصل إليها والعمل على تفعليها لإدراك معاني القرآن الكريم وتدبُّرها بشكل سليم.

ومن تلك العوائق: الصد عن سبيل الله تعالى وإبعاد الناس عن الحق، وقد جعل الله عزَّ وجلَّ تعطيل سمع هؤلاء وتوقف فهمهم وإدراكهم للخطاب جزاءً من جنس عملهم المتمثل في إبعاد الخلق عن طريق الحق، فكانت النتيجة إبعادهم هم عن هذا الطريق بتعطيل أهم وسائل الإدراك الإنساني السمع والبصر.

فلا فرق بين أنْ يمتلك الإنسان سمعاً ولا يستعمله، وبين ألا يتملكه أصلاً، فالأول أشد بؤساً، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

ومما يعيق سمع الإنسان وإدراكه كذلك: لهو القلب وانشغاله عن تعقُّل معاني الألفاظ المسموعة بأي شاغل يحول بين القلب وتفهُّم معاني المسموع،

(١) سورة هود الآيات ١٩-٢٠

قال تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١).

وقد أظهرت دراسات علماء النفس في مجال الإدراك أنَّ تركيز الانتباه عند الاستماع والمعرفة الأولى من أهم الخطوات للإدراك السليم، وهذا كله يتطلب من الإنسان التفرُّغ للموضوع المسموع وعدم الانشغال بما سواه وإبعاد عوامل التشتت المختلفة، كما أكَّدت الدّراسات على أهمية توجيه التركيز لفهم المعاني وتوضيح الجزئيات بعيداً عن الشرود في الذهن والتشويش أثناء عملية السماع.

ومن العوائق الخطرة الاستكبار عن الاستماع، وهو من أخطر وأصعب العوائق، قال تعالى ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾(٢)، وقال تعالى ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ ﴾ (٣).

ولا تخفى خطورة هذا المرض الذي كان من أهم أسباب عصيان إبليس لأمر الله بالسجود، فقد تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السجود لآدم.

---

(١) سورة الانبياء الآية ٢١

(٢) سورة لقمان الآية ٧

(٣) سورة الجاثية الآيات ٧-٨

وفي الآية تقريع لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه والتسليم له فيما أوجب، فهم بعد أنْ ينعم الله عليهم بسماع آياته يبقى على إصراره وعناده، فلا يولد السماع لديه استجابة وخضوعاً لأمر الله، بل على العكس يتولد عنه تكبُّراً واستنكافاً عن الانقياد لأوامره، فكان منعهم الفهم فيما بعد بما نكصوا واستكبروا عن السماع الأول، قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾[1]، أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة مَنْ لا يسمع ولا يفهم[2].

والمراد بالأكنَّة والوقر: وجود ما يحول بينهم وبين السماع والفهم المطلوب.

وفي الآيات تأكيد على أهمية تدبُّر القرآن الكريم والإصغاء إليه بتمعُّن وتفهُّم، فالخطاب موجه للنبي عليه الصلاة والسلام، بمعنى يا محمد من يستمع

(١) سورة الانعام الآية ٢٥

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد: تفسير القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، دار الشعب، مصر، ط/٢، ١٣٧٢هـ ٤٠٤/٦.

القرآن منك ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك وأمره ونهيه ولا يفقه ما تقول ولا يعيه بقلبه ولا يتدبَّره ولا يصغي له سمعه ليتفقهه فيفهم حُجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنَّما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك ولا يعقل عنك ما تقول، لأنَّ الله قد جعل على قلبه أكنَّة وأغطية تحول بينه وبين وصول الخطاب ومعانيه[1].

ومما يعيق فعالية السمع عند وصوله إلى المعاني والمرامي من المسموع، كثرة الاستماع للغو من الكلام، واللغو قد يطلق ويراد به الكلام الباطل، وقد يراد به الكلام الذي لا فائدة من ورائه ولا يحتاج إليه[2].

وأدخل بعض العلماء مختلف المحرمات والمنهيات من المسموعات في نطاق اللغو، فقالوا: اللغو كل سقط من قول أو فعل، فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "هو الباطل والقول الذي لا فائدة فيه"[3].

وقد اختطت النصوص القرآنية منهجاً واضحاً لعلاج تلك العوائق والخلاص منها منذ لحظة بدايتها، فأثنى على المعرضين عن كافة أنواع

(١) الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٦٩٧.

(٢) القرطبي: مرجع سابق، ٩٩٣.

(٣) القرطبي: مرجع سابق، ٨٠/١٣.

المسموعات الممنوعة والمنهي عنها من أولها، قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾[2].

وجاء التأكيد على مسئولية الإنسان عن ما يطرق سمعه من أحاديث وأقوال وحض على الانتقائية في السماع للكلام من خلال صرف الذهن عن تمرير الألفاظ المسموعة (غير المسموح بها) بمنطقة الوعي بالدماغ بمعنى لفظها وردها من منطقة الأذن مباشرة، وعدم الانتقال بها إلى مرحلة الإدراك، وهذا أمر انتقائي إرادي يستطيع الإنسان التحكُّم فيه وتمرين الأذن البشرية عليه من خلال الإعراض المتواصل عن اللغو.

من هنا جاء ثناء القرآن على المعرضين عن اللغو المعرضين إعراض اختيار عن اللغو حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾[3]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا

(١) سورة الانعام الآية ٦٨

(٢) سورة النجم الآية ٢٩

(٣) سورة الفرقان الآية ٧٢

﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1]، وما ذلك إلاَّ لكون تلك الأعمال اختيارية داخلة ضمن إرادة الإنسان ورغبته.

وأكَّد القرآن الكريم على أهمية النأي والابتعاد عن مجالس الفحش، والسخرية، والكفر، والنفاق، والاستهزاء بآيات الله من خلال تسويته بين القائل لها والمستمع في الإثم والعدوان، ليحمَّل الإنسان مسئولية ما يسمعه وما يطرق ذلك الجهاز[2].

قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[3].

وتأكيد القرآن الكريم على تلك العوائق يوضح دورها في تشويش الذهن والحيلولة دون وصول معاني الخطاب القرآني. يقول ابن القيم في هذا السياق: "وإدمانه ـ يعني الغناء ـ يثقل القرآن على القلب ويكره إلى سماعه بالخاصية، وإن لم يكن هذا نفاقاً فما للنفاق حقيقة، وسر المسألة أنَّه قرآن الشيطان ـ يعني

(١) سورة القصص الآية ٥٥

(٢) ابن تيمية: الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ١٤٠٣هـ ٢١٧/١. وانظر كذلك في أنواع اللغو والسماع المذموم: الجوزية، ابن قيم: إغاثة اللهفان، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط/٢، ١٩٧٥م، ٢٢٦/١.

(٣) سورة الانعام الآية ٦٨

الغناء ـ فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب أبداً"[1].

فالغناء ينبت النفاق في القلب دون سائر المعاصي والذنوب من حيث إنَّه يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبُّره والعمل بما فيه، فإنَّ القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً لما بينهما من التضاد، فإنَّ القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء على الضد من ذلك كله، وعلى هذا كان إدمانه يورث ثقل القرآن على القلب ويكره سماعه"[2].

وقد أوضح القرآن الكريم بعض الوسائل التي يمكن من خلالها تفعيل دور السمع ووصول المعاني المسموعة إلى العقل والقلب، ومن تلك الوسائل الإصغاء والاستعداد للتلقي لآيات القرآن الكريم، ويتضح ذلك جلياً في قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[3].

فالناس عند سماع الخطاب القرآني ثلاثة:

(١) ابن قيم الجوزية: المرجع السابق، ٢٥٠/١

(٢) الجوزية، ابن قيم: إغاثة اللهفان، ٢٤٨/١.

(٣) سورة ق الآيات ٣٦-٣٧

ـ **رجل قلبه ميت**، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

ـ **الثاني**: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستهد تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر القلب ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب ملق السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

رابعاً: وسيلة الإبصار الإدراكية

ورد الحديث عن البصر في عشرات الآيات القرآنية مع اختلاف اللفظ المستعمل للتعبير عنها، فتارة يأتي اللفظ بكلمة "بصر"، وثانية "رأى"، وثالثة بكلمة "نظر".

أمَّا كلمة "بصر" فتطلق على الجارحة الناظرة، كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ

﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٧٧﴾[1]، ومنها لفظة الفعل أبصرت، ومنها قوله تعالى ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾[2].

أمَّا قوة القلب المدركة فيقال لها بصيرة، نحو قوله تعالى ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾[3]. وجمع البصيرة بصائر، ومنها يقال: بصرت، أي سعلى معرفة وتحقُّق، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾[4]، أي علمت ما لم يعلموا به من البصيرة وهي اعتقاد في القلب من الدين وتحقيق الأمر[5].

فالبصيرة تختلف عن البصر، فهي قوة القلب المدركة وجمعها بصائر، أمَّا

(١) سورة النحل الآية ٧٧

(٢) سورة السجدة الآية ١٢

(٣) سورة ق الآية ٢٢

(٤) سورة طه الآية ٩٦

(٥) انظر ذلك في: الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص ٤٩.

البصر فجمعها أبصار.

أمَّا كلمة "نظر" ومشتقاتها فتطلق ويراد بها تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمُّل والتفحُّص لإدراك الشيء ورؤيته[1].

ومنها قوله تعالى ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2].

أمَّا "رأى" ومشتقاتها؛ فالرؤية تعني النظر بالعين والقلب وإدراك المرئي، والإدراك لما ترى العين قد يحدث بوسائل متعددة بحسب قوى النفس، فقد يحدث بالحاسة وما يجري مجراها كما في قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾[3].

والألفاظ الثلاثة مختلفة تماماً في البنية اللُّغوية وليس بينها حرف واحد مشترك سوى الراء، كما أنَّها ليست من المترادفات بحيث يصح استعمال أي لفظ مكان الآخر، كما أنَّه ليس صحيحاً أنَّ استخدام الألفاظ الثلاثة إنَّما هو من قبيل التنويع، خصوصاً إذا وردت مجتمعة كما في الآية الكريمة ﴿وَإِن

(١) راجع ذلك في: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٤م، ٢٤٥/١٤. الزين، سميح عاطف: معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠٠١م، مادة (نظر) ص ٨٨.

(٢) سورة يونس الآية ١٠١

(٣) سورة التكاثر الآية ٦

تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾[1].

فالقارئ المتدبر لا بُدَّ أنْ يكتشف وراء هذا التنويع اللفظي مقاصد خاصة. ومن ذلك أنَّ عملية الإبصار مركبة من شقين متكاملين، هما: الشق النظري وتقوم به العين، ثم شق الرؤية ويقوم به مركز عصبي خاص في قشرة المخ، وهو متصل بشبكية العين عن طريق العصب البصري، وبقيام هذا المركز بإدراك ما يرد إليه من الشبكية تتم عملية الإبصار.

فالرؤية هي الخطوة التالية للنظر، وهي التي تتم بها عملية الإبصار، فهي الخطوة الحاسمة التي يراد الإبصار لأجلها. ونظراً لأهميتها فإنَّ القرآن الكريم كثيراً ما يعطي لفظ "رأى" ومشتقاته الأولوية في التعبير عن عملية الإبصار كلها، خصوصاً إذا كان الهدف الرئيسي منها هو التدبُّر والاعتبار.

والقرآن الكريم في سياق حديثه عن تفعيل وسيلة الإبصار وأهميتها، وضع أسساً وأطواراً مختلفة للإدراك البصري الصحيح، تلك الأسس التي لم يكشف العلم الحديث النقاب عنها إلاَّ مؤخراً عند أصحاب نظرية الجشتالت[2].

فالإدراك الحسي بوساطة البصر لا بُدَّ أنْ يبدأ بنظرة كلية إجمالية، ومن ثم يبدأ بتحليل الموقف وإدراك العناصر المكونة له والعلاقات القائمة بين أجزائه

(١) سورة الاعراف الآية ١٩٨

(٢) بركات "وآخرون": مرجع سابق، ص ١٤٩.

المختلفة ثم إعادة تأليف تلك الأجزاء في كل موقف والعودة إلى النظرة الكلية مرة ثانية.

ولقد تضمنت آيات سورة الملك تلك الأسس العلمية في قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[1].

فالأمر أولاً باستعمال العين أداة الإبصار ـ وهي الجارحة ـ والنظر نظرة إجمالية في ذلك الخلق، ثم تقليبها وتعقُّب العناصر والجزئيات والعلاقات للتوصل إلى النتيجة وهي انعدام رؤية فطور أو شقوق أو تصدع في خلق السماء.

والرؤية ـ المشار إليها في الآية بلفظة ترى ـ لا تقتصر على العين المجردة بل يرافقها التأمُّل والتمعُّن والتفحُّص، فكان الموافق للسياق استعمال كلمة "ترى" وليس نظر أو بصر.

وتعاود الآية التأكيد على ذلك بقوله تعالى في تمام الآية ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ في حين أنَّ الإنسان لا يسعه أنْ يرى خلق الرحمن بأكمله، ولكن القرآن يريد أنْ يثبت للإنسان قضية عقلية يمكن أنْ يصل إليها

(١) سورة الملك الآيات ٣-٤

من خلال قياس ما لا يراه من خلق الله على ما يراه ويتأمَّله من الدقة والاتساق والنظام البديع، وحيث إنَّ المراد من ذلك كله إثبات مسألة عقلية كان استعمال اللفظة القرآنية "ترى" دون غيرها مثل نظر أو بصر. وبهذا تصبح عملية الإبصار عملية عقلية محضة تتضافر فيها مختلف الوسائل الإدراكية لبلوغ المعنى المراد الذي قد يكون فاصلاً بين الإيمان والكفر في آنٍ واحد.

ولا تقتصر عملية الإبصار في القرآن الكريم على الآيات المقروءة، بل تتجاوزه لتؤكِّد دورها في إبصار الآيات المشهودة في الكون، فالمرء يكون أمام كتابين يقتضيان إبصار حقائقهما معاً وتلاوتهما في وقت واحد: الكون المنظور والقرآن المقروء.

يقول ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك: "الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما النظر في مفعولاته، والثاني التفكُّر في آياته وتدبُّرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة"[1].

من هنا جاء التأكيد في القرآن الكريم على أهمية النظر في الخلق والكون وسير الأمم السابقة، بمعنى التأمُّل والتفحُّص فيها والتمعُّن وإدراك حقيقتها، لا بالعين المجردة فحسب بل بالقلب فهماً، وتعقُّلاً، وتدبُّراً.

وكما أنَّ القرآن أكَّد على أهمية الربط بين حاسة السمع والقلب

(١) ابن قيم: الفوائد، ٢٠/١.

والعقل، أكَّد كذلك على الربط بين العين والقلب والعقل، بل إنَّ النصوص القرآنية أدلت بحقيقة أخرى، وهي أنَّ العمى الحقيقي والعجز عن الإبصار لا يتمثل أو يكمن في عمى العين الجارحة على سبيل الحقيقة، بل هو عمى القلب وإنْ كانت جارحة العين سليمة تستطيع النظر إلى الأشياء، ليثبت دور القلب في تعقُّل معاني المرئيات وإدراكها.

قال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1]، وفي قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾[2]. فالقلب في الخطاب القرآني مسئول عن الرؤية المبصرة للحقائق والمرئيات المنظورة بالعين. يقول ابن قيم ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك: "كل عضو من أعضاء البدن خُلِقَ لفعل خاص به، كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أنْ يتعذَّر عليه الفعل الذي خُلِقَ له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب...، ومرض العين أنْ يتعذَّر عليها النظر والرؤية"[3].

فإذا كانت العين سليمة وكان الفؤاد في تشتت واضطراب، فالعين وإنْ

(١) سورة الحج الآية ٤٦

(٢) سورة النجم الآية ١١

(٣) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، ٦٨/١.

كانت تنظر جيداً إلاَّ أنَّ الإنسان لا يبصر شيئاً، وقد ذكرت هذه الحقيقة العلمية في القرآن الكريم كما في قوله تعالى﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾[1]، كما أشار إليها في السورة ذاتها قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[2].

من هنا أناطت النصوص القرآنية الكريمة مهمة الاعتبار والتدبُّر من خلال النظر بالإنسان العاقل الذي يستطيع من خلال الإدراك السليم لما يراه ويبصره من تحويل تلك المدركات المرئية إلى معانٍ مفهومة يفرغ عليها ما لديه من خبرات واتجاهات[3].

من هنا يمكننا القول: إنَّه لا يوجد إدراك بلا إحساس، ولكن يمكن أنْ يكون هناك إحساس دون إدراك، وهذا هو المعني في تكليف الخطاب القرآني للإنسان بالنظر والاعتبار.

وقد ذكرت النصوص القرآنية قدرات عديدة تتعلق بالبصر، منها قدرة

(١) سورة الاعراف الآية ٩٨

(٢) سورة الاعراف الآية ٢٠١

(٣) عيسوي: مرجع سابق، ص ١٥٩.

النظر عموماً، التي يشترك العقل فيها مع قدرات البصر للكشف عن الأمور، ومنها الإبصار وهو قدرة عقلية نافذة تساعد على دقة الفهم والتعمُّق في تحليل الظاهرة وكوامنها. والعين الجارحة لا تنال كمالها الذي خُلِقَت لأجله إلاَّ بالتبصُّر والإبصار والنظر في آيات الله في الخلق والأنفس والكتاب الكريم.

والقرآن الكريم بآياته والكون البديع بما فيه من عجائب القدرة الإلهية بصائر وتبصرة، والمقصود أنَّ المحل القابل للإبصار والاعتبار هو عين المؤمن المنيب إلى ربه الخائف منه، فإذا هداه الله واعتبر بالنظر؛ فكأنَّه وصل أثر فعل ذلك النظر والإبصار إلى محل قابل فيتأثر به، فصارت الآيات له بصائر وتبصرة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلاً وصلت إليه الآيات فلم تؤثر فيه كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء، فإنَّه لا يؤثر فيه شيئاً، بل لا يزيده إلاَّ ضعفاً وفساداً إلى فساده.

من هنا جاءت الآيات المتضافرة للحق على التدبُّر والتفكُّر من خلال النظر وإعمال الرؤية في الكون المشهود، كما في **(أفلا ينظرون)**، **(أولم يروا)**، **(ألم تروا)** ...إلخ. فالعين نافذة لإيقاظ القلب على مواضع الحسن والإتقان في العالم المرئي ومن ثم الانتقال في مرحلة تالية إلى زيادة الإيمان والخشية لله سبحانه صانع الكون وخالقه.

خامساً: تفعيل وسيلة الإبصار الإدراكية

يتضح مما سبق أنَّ عملية الإبصار وإدراك المبصرات تتأتى من عمل الحواس والقلب والعقل معاً. فإذا وُجد حائل بين نقل المدركات البصرية إلى مراكز الإحساس في المخ بوساطة الجهاز العصبي؛ فإنَّ الغالب على تلك المرحلة هو الإحساس فقط دون الإدراك، بمعنى أنَّ الإنسان يتوقف عند الإحساس بالمبصرات دون تحويلها إلى معانٍ مدركة تفهم منها غاياتها. والإحساس المجرد عملية تشترك فيها كل المخلوقات الحية على اختلاف فيما بينها في القدرات والمميزات.

من هنا جاء تعنيف النصوص القرآنية لأولئك الذين أوقفوا قدراتهم عند مرحلة الإحساس فقط، ولم ينتقلوا بها إلى المرحلة التي تميَّز بها الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات، ألا وهي الإدراك الذي يشكل الخطوة العقلية والنفسية التي تتحول فيها الإحساسات المرئية إلى معانٍ ورموز لها دلالتها، حيث تتحول الإحساسات من أمور مادية إلى معانٍ وأفكار عضوية[1].

ومن الأمور التي أسفر العلم الحديث عنها أنَّه لا يوجد عند الإنسان إحساس صرف إلاَّ في الحالات النادرة، بمعنى أنَّ الإنسان عادة يترجم ما يراه إلى معنى معين، وهذا يفسر لنا أهمية تأكيد القرآن الكريم على ضرورة إعمال العقل والفكر في عملية الإبصار، وتحميل الإنسان المسئولية عما يراه ويدركه.

(١) عيسوي: مرجع سابق، ص ١٦٠.

بيد أنَّ ثمة أمور وعوائق قد تحول بين الإنسان ووصوله إلى مرحلة الإدراك المطلوبة للمرئيات من حوله، وخاصة الكون المشهود والقرآن المقروء.

وهو ما عبَّر عنه ابن القيم بأنَّ العين تمرض فيتعذر عليها النظر والرؤية، وليس المراد بالنظر الحسي، فهذا أمر آخر، بل المراد التعقُّل والإدراك للمرئي، فينظر الإنسان إلى الشيء فلا يدرك له معنى ولا يخبر له مغزى ولا مرمى(١).

وقد لا يشعر المرء بخطورة ذلك المرض ولا باعتلال عوامل الرؤية عنده بحكم الاعتياد.

ومن أبرز عوائق الإبصار السليم تشتت النظر وإطلاق البصر وعدم تركيز الانتباه الذي يؤدي إلى حصر الطاقة العقلية في الموضوع المراد إدراكه، بحيث تتداخل أمور متعددة في ذات الوقت مما يجعل إدراك المقروء والمشهود أمراً في غاية الصعوبة

فالإنسان إذا نظر إلى شيء بعينيه وعقله وفكره منصرف تماماً عنه إلى شيء آخر، فإنَّه لا يبصر ذلك الشيء الذي ينظر إليه، قال تعالى ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾(٢)، هو ما عبَّر عنه القرآن في بعض الأحيان بقوله ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾. فالإبصار السليم لا

(١) ابن قيم: إغاثة اللهفان، ٦٨/١.

(٢) سورة الاعراف الآية ٩٨

يتم في غفلة القلب ولهوه وانصرافه إلى أمور أخرى.

من هنا كان التأكيد على أهمية التركيز والانتباه لما نراه والخروج من حالة الاعتياد والإلفة التي قد تجعل الإنسان يدخل في مرحلة النظر إلى ما لا يرى.

وقد أثبتت الدّراسات النفسية الحديثة أنَّ هذه الظاهرة لها أساس عضوي في الجهاز العصبي في الإنسان، ويعتقد أنَّه يكمن في نشاط التكوين الشبكي (Reticular Formation) وأليافه العصبية الصاعدة منه إلى الدماغ (Reticular Activating System).

وهذا التكوين العصبي الذي يقع في ساق الدماغ ويمتد صاعداً إلى مراكز الدماغ العليا يقوم بدور البوابة التي تتحكم في النبضات العصبية والإثارة الصاعدة للدماغ، فقد يضخم التكوين الشبكي لدى بعض الأفراد من الإشارات العصبية التي ترسلها الأعضاء الحسية المختلفة إلى الدماغ، فيتمتع الفرد بسبب ذلك بقدرة فائقة على التركيز الذهني ولفترات طويلة نسبياً[1].

من هنا كان التركيز الذهني منوطاً بالتوصل إلى النظر الاعتباري.

ومن العوائق المهمة للنظر إلى ما حرَّم الله ومنعه ونهى عنه وزجر المؤمن أنْ تمتد عينه إليه، ويشمل ذلك مختلف الصور والأمور المحرمة من النظر إلى

(١) بدري، مالك: التفكُّر من المشاهدة إلى الشهود "دراسة نفسية إسلامية"، المعهد العالي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط/٣، ١٩٩٣م، ص ٨٩-٩٠.

أجنبية إلى غير ذلك من أمور وصور تمتد إليها العين، قال تعالى ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ (١).

فالعين التي هي حاسة الإبصار نافذة الإنسان على المحيط به، فجاءت كلمة **(يغضون)** مناسبة لسياق الآية الآمر بعدم النظر إلى ما حرَّم الله وقطع ذلك منذ أول مرحلة، لأنَّ النظر أول مرحلة من مراحل عملية الإبصار، فإذا قطع المؤمن ذلك المنفذ وأغلقه، سلم من عواقب المراحل التالية من انشغال القلب بالصورة المرئية إلى الافتنان بها إلى غير ذلك من مراحل تالية للأولى.

ولابن القيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ كلام سديد في ذلك فقد أورد لغض البصر فوائد عدة، ثم أوضح المناسبة بين الآيتين الورادة في غض البصر، ثم قوله تعالى في سورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)، يقول في ذلك: ".. وسر هذا أنَّ الجزاء من جنس العمل، فمن غض

(١) سورة النور الآية ٢٠

(٢) سورة النور الآية ٣٥

بصره عما حرَّم الله عزَّ وجلَّ عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه، فإنَّ القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه، وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون"[1].

وفي كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ إرهاصات علمية، فذاكرة الإنسان تختزن غالباً عدداً من الصور السابقة والذكريات السالفة، وما الرؤى والأحلام إلاَّ صورة مختزنة في العقل الباطن يراها الإنسان أمامه، وكأنها تحدث للتو. من هنا كانت أهمية تنقية الإنسان وتصفيته لما تمتد إليه العين في النهار من أهم الوسائل لحفظ هذا الجهاز وصيانته من اختزان معلومات وصور مشوشة، إضافة إلى أنَّ اطّلاع الإنسان على ما لا ينبغي ونظره إلى المحرمات بأنواعها مدعاة لترتب الجزاء عليها من جنس ما قام به، ومنه قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾[2].

وقد فصَّل بعض العلماء ـ ومنهم ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ في أنواع

(١) ابن قيم: إغاثة اللهفان، ٤٨/١.

(٢) سورة محمد الآية ٢٣

المحرمات والصور التي لا ينبغي للمؤمن النظر إليها تفصيلاً دقيقاً موضحاً آثار ذلك على القلب وصفائه وطمس البصيرة والبعد عن الفهم في كتاب الله[1].

كما أورد ابن القيم على لسان الشيطان أهمية النظر المحرم في منع نظر الاعتبار والتفكُّر المطلوب من الإنسان، يقول في ذلك: "ودونكم ثغر العين، فإنَّ منه تنالون بغيتكم، فإنِّي ما أفسدتُ بني آدم بشيء مثل النظر، فإنِّي أبذر به في القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمنية ثم لا أزال أعده وأمنيِّه حتى أقوي عزيمته وأقوده بزمام الشهوة إلى انخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهونوا عليه أمره"[2].

وكما أنَّ القرآن الكريم أبرز العوائق التي تحول دون النظر السليم، فإنَّه أظهر الوسائل المعينة للتوصل إليه، ومن ذلك تدقيق النظر والتعرُّف على الكون المشهود.

إذ إنَّ النظر الفاحص المدقق ينقل الإنسان من المعرفة الباردة المألوفة التي اعتادت الأنظار عليها إلى المعرفة المنبهرة بدقة الصنع وجمال التنسيق وعظمته، وتذوق تلك المرئيات واستشعارها والنظر إليها بعين متجددة.

فالنظر في الخلق والكون المشهود الذي دعت إليه عشرات النصوص القرآنية، من أهم خطوات التدبُّر، حيث تهتز لها القلوب وتقوم بالربط بين

(١) ابن تيمية: الفتاوى، تحقيق حسنين مخلوف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ ٤١٠/١٥ وما بعدها.

(٢) الجوزية، ابن قيم: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ، ٦٧/١.

ذلك الجمال المشهود والمبدع له سبحانه فتحصل للإنسان خشية وتعظيماً لخالقه حتى تصبح المناظر المألوفة التي لم تكن تحرك فيه ساكناً، مثيرة للفكر والتأمُّل ومحركة لإيقاظ البصيرة في ذاته ليصبح الكون كله مسجداً ومحراباً يدخله المؤمن فيخشع قلبه وتنقاد جوارحه إيماناً ويقيناً وتصديقاً. عندئذ تأتي نصوص القرآن الكريم على نفسه موقظة أحاسيسه وقدراته العقلية، مؤثرة في ذاته وحياته، مغيرة لسلوكياته نحو الأفضل والأتم في أسلوب متناغم مع الكون كله.

وليس الإبصار المقصود تجريدي لمجرد النظر فحسب، بل الغاية منه الوصول بالمؤمن إلى مرحلة القدرة على اكتشاف قوانين الخلق في الكون والأنفس التي يديم النظر إليها، ومن ثم استثمارها في إنجازات فعَّالة تخدم البشرية وتحقق غاية الاستعمار والاستخلاف الحضاري.

من هنا كان التأكيد القرآني المتواصل على أهمية النظر في السموات والأرض والأنفس والأمم والتاريخ، ليصبح العقل دائم التفكُّر في الخلق، دائم البحث عن قوانينه وسننه مثيراً المحاولات للتعرف عليه والإفادة منه، يقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ (١).

ابتدأت الآية النقلة الحضارية بكلمة "ترى" تأكيداً على أنَّ المسألة ليست

(١) سورة فاطر الآية ٢٧

مجرد نظرة عابرة، بل هي رؤية تجتمع فيها القدرة على النظر المتبصر بالعين والتعقُّل بالقلب والعقل لإدراك المعاني، وتقليب النظر وإعادته للتعرُّف على الخلق، والخروج بتلك النظرة المتفحصة بإنجازات حضارة في مختلف تخصصات العلوم الطبيعية كعلم النبات، والطب، والجيولوجيا، والأحياء، والاجتماعيات ... ثم إنَّ الآية أثبتت صفة الخشية لهؤلاء العلماء الذين جمعوا إلى جانب تلك التخصصات الخشية والإيمان، وكانت علومهم قائدة لهم لمعرفة الله وخشيتهم له.

وتتوالى آيات الأنفس والآفاق في إعجاز مستمر لا يتوقف لحظة عن لفت العقول والأبصار والأسماع إلى العلاقة المتبادلة المستمرة بين آيات الكتاب التي جاء بها الوحي وبين آيات الآفاق والأنفس التي أودعها الخالق سبحانه في الكتاب والكون المشهود، وعلى هذا لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم إلاَّ وفيها حث على النظر والتتبُّع العلمي لمظاهر الإعجاز والحض على الكشف عنها في الأرض والنفس ومفردات الخلق[1].

من هنا تطور العلم التجريبي عند المسلمين من خلال التدبُّر في خلق السموات والأرض والتفكُّر في سنن الله في خلقه من جهة، والتدبُّر في كتاب الله من جهة أخرى، محدثاً تلك النقلة الحضارية الهائلة عند المسلمين، ولن يتسنى للمسلمين العودة إلى دورهم الحضاري إلاَّ من خلال العودة إلى تدبُّر

(١) الكيلاني، ماجد عرسان: أهداف التربية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ١٩٩٧م، ص ١٥٧.

الكتاب والكون في تناسق معرفي واضح.

خاتمة البحث

تناولت هذه الدّراسة أبرز وأهم وسائل إدراك الخطاب القرآني المتمثلة في السمع والبصر. وقد كشفت الدّراسة عن أهمية هاتين الوسيلتين في عملية الإدراك ودورهما البارز، فإذا تمكَّن المؤمن من إعمال هاتين الوسيلتين، أثمر ذلك الإعمال فهماً وسلوكاً إيجابياً في واقع الحياة الفردية والجماعية. وقد حدث هذا وتحقق تاريخياً، مما أسفر عنه ريادة الأُمَّة الإسلامية في أثناء فترة شهودها الحضاري.

كما كشفت الدّراسة عن بعض نتائج إهمال هاتين الوسيلتين في الواقع وأسباب ذلك، وكيفية تجاوز ذلك وإعادة تفعيلهما من جديد لفهم الخطاب القرآني وتطبيقه سلوكياً في واقع الحياة.

وأكَّدت الدّراسة أنَّ عودة المسلمين إلى دورهم القيادي مرهون بإعمال وسائل الإدراك والإفادة منها في مجال التدبُّر في الكون والقرآن الكريم.